## سياحة مع المجذوب في دموعه المصبوبة

# في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

بقلم د .علي عبد الله محمد

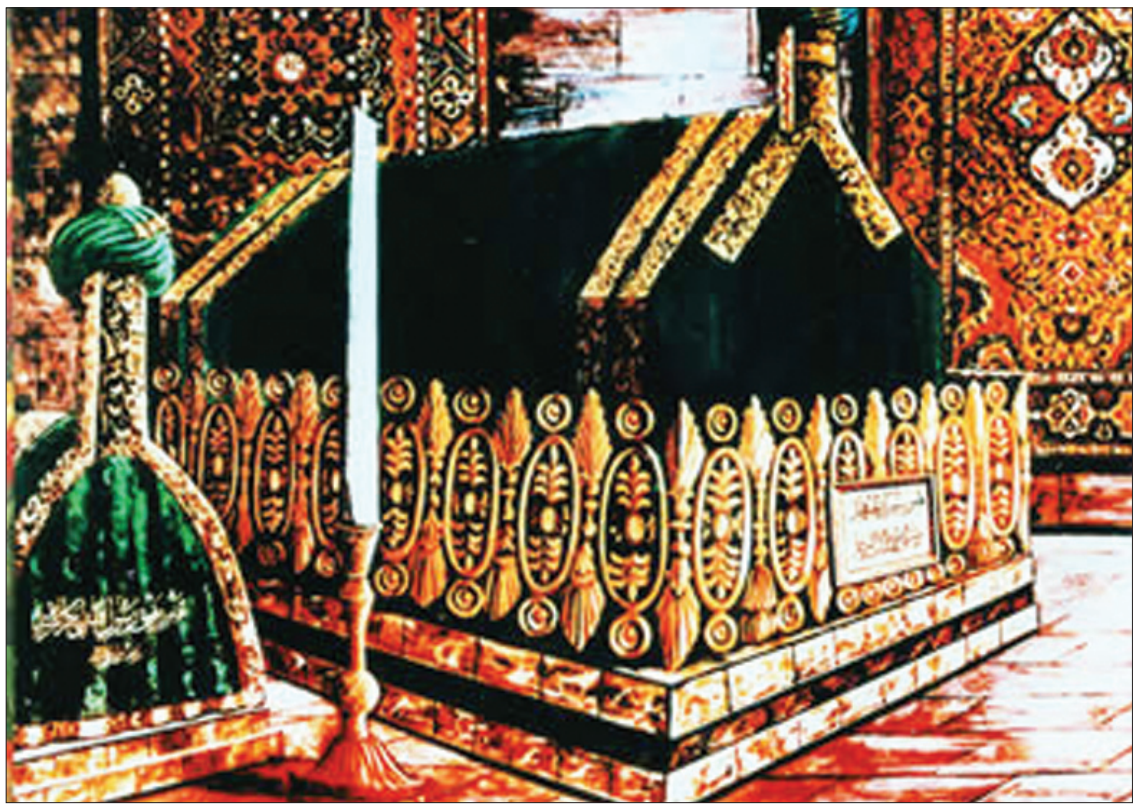

من منا من يذكر عنده رسولنا صلى الله عليه وسلم ولم يصل عليه، إنها لحظة الانتباهة وساعة اليقظة والاستجابة لنداء المغفرة، بل هي ساعة إيقاظ القلب الغافل لتحريك كل خلية في الجسد للصلاة عليه، وهي سانحة البحث في كوامن الفؤاد لتلمس قدر المحبة فيه، وعمق الشوق إليه عليه السلام، ومعرفة مدى المساحة التي يتحرك فيها المرء ملتزمًا بتعاليم من أحبه، صلى الله عليه وسلم، والتلذذ بطعم إتباعه نشوة علوية، ومحبة قلبية، وطاعة مختارة.

ويأتي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم محركا لهذه المعاني، ودافعًا للمحبين كي يسارعوا لروضة الصلاة عليه، ويتبارى المادحون في إظهار شوقهم لحبيبهم، ويفتنوا في انتقاء الألفاظ ورسم الصور في هذه الروضة الغناءة، لا يشبعهم قول سابق، ولا يطفئ شوقهم قصائد مقارن أو كلمات لاحق، إنها مواكب متجددة من المادحين، كلما جاء مادح اهتز له محب، وجذب إليه عابد، حتى إذا جاء غيره بأحسن ما جاء به السابق جذب إليه من جذب: كؤوس مترعة بحب المصطفى، وقلوب شائقة إليه، ونفوس متدافعة لعمارة الكون.

من هؤلاء المادحين الشيخ محمد مجذوب بن قمر الدين المجذوب المولود بالمتمة عام ١٧٩٥م، والذي شهر بين الناس بالمجذوب، وهو لقب يشاركه فيه الكثير من المجاذيب، كالشاعر محمد المهدي المجذوب، والدكتور عبد الله الطيب المجذوب وغيرهما من عقد المجاذيب المنضد، عليهم رحمة الله .

ومع ما لمادحنا المجذوب من علم بالفقه مقدر، وسعة في الاطلاع بالعلوم معتبرة، فقد اشتهر بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من شهرته بما سوى ذلك، ولعل مرجع ذلك حسن نظمه في المدح، وجزالة كلماته، وقوة العاطفة في قصائده، وقد أشار إلى تأليفه الدكتور أحمد بابكر الطاهر جلال الدين في كتابه: (المجاذيب نير وأنوار).

سجع الشيخ محمد مجذوب قمر الدين قصة الإسراء والمعراج، ونظم المولد في أكثر من قصيدة من الطويل والقصير، ثم كانت قصائده التي جمعت في ديوان الشيخ المجذوب، الذي يحوى ستين قصيدة من أروع ما كتب في المدح، والتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم، وفي غير ذلك من ميادين الشعر كشعر الحكمة، والمواعظ، والنصائح، وغالب قصائده بلغة عربية فصيحة، رقيقة الألفاظ، دقيقة المعاني، سامية الرفعة نقتطف منها شذرات: فمن نظمه في المدح:

**عشقت رسول الله ربك وحده فعشق فيك**
**الخلق فالرب رافع**
**ملكت قلوب المؤمنين صبابة إليك جميع**
**المؤمنين توابع**
**كشفت ظلام الشك بعد اشتداده واخلفته**
**نورًا بنورك ساطع**
**ومن نظمه في الحث لعلو الهمة:**
**شمر لنيل الفضل إن رمت العلا فالفضل**
**والعليا لكل مشمر**
**خوف الإله وحبه والزهد في دار الدنية**
**خذ لقلبك عمر**
**والذل والخسرى لطالب راحة لو يبلغن في**
**العمر عمر معمر**
**والزم لحسن الخلق خير تجارة وحظوظ**
**نفسك ما استطعت فدمر**
**ومن نظمه في عتاب نفسه:**
**تبدو لي الأعذار إن رمت طاعة وإن رمت**
**للعصيان طرت بجملتي**
**وقلبي لم أعهد عليه وجلة إذا ذكرت ربي**
**في المساء وبكرة**
**إذا قمت وقتًا للصلاة تراكمت علي من**
**الدنيا الهموم وخفت**
**كان لم اكن أؤمن بقول رسولنا يناجي**
**المصلي ربه بيئس حالتي**

غير أن من أروع قصائده في المدح قصيدته التي استفتح به ديوانه، وطار بها الناس شرقا وغربًا، وأنشدها المادحون وأطربوا بها، والتصق اسمه به، حتى لكأن الناس لم يعرفوا له مدحًا سواها، ولا شعرًا غيرها هي قصيدته المشهورة والتي مطلعها:

**عليك صلاة الله ثم سلامه الا يا رسول الله**
**إني بك مغرم**
**صببت دموعًا يشهد الحزن انها اتت من**
**فؤاد بالغرام متيم**
**وليس له من ذا التتيم مشرح سوى ان يرى**
**معشوقه فيسلم**
**يقول لي المعشوق لا تخش بعد ذا حجابًا**
**ولا طردًا فعهدي متمم**
**متى ما أردت القرب منى فنادني الا يا**
**رسول الله إني مغرم**
**أجيب من بعد وإني جليس من بحبي**
**مشغول بذكرى مترجم**
**حلفت يمينًا إن قلبًا يحبكم عليه عذاب**
**النار قطعًا محرم**
**فكيف بمن قد شامكم كل ساعة فهذا يقينًا**
**في الجنان ينعم**
**سلام عليكم والسلام ينيلني فهذا يقينًا**
**في الجنان ينعم**
**لساني تحيات تليق بقدركم أكررها في**
**حيكم وأهمهم**

وهي قصيدة وظف فيها المجذوب قدراته الشعرية، وسكب فيها عبراته، وأودعها أحاسيسه وأشواقه، وانتقى لها من الألفاظ والكلمات والعاطفة الصادقة ما أهلها لأن يفتتح بها ديوانه، فكانت بحق تاج فخار يتزين به قائلها كلما ذكر المدح، وأينما حل ذكر المجاذيب، فاشتهرت اشتهار بردة البوصيري، ونهجة شوقي، وليلة مولد محمد المهدي، واستعذب المحبون سماع كلماتها موقعة النشيد استعذابهم ترانيم السماني أحمد العالم، ومولد الكابلي، ومدائح أبي داوود.

وفي إشارات موجزة يمكن أن نتعرض لما حوته القصيدة من جوانب يحسن الإشارة إليها، والتنويه بها لأكساب القصيدة رونقًا خاصًا وطعمًا مميزًا، وجودة أعلت كعبها.

ومن ذلك: أن المجذوب ألبس القصيدة عاطفة جياشة، سرت في أبيات القصيدة كلها، عبرت عنها كلماتها وحروفها وجرسها العام، فأول أبياتها ختمه بقوله (إني بك مغرم) ثم الأبيات التاليات: (فؤاد بالغرام متيم) (يرى معشوقه فيسلم) وهكذا تخللت القصيدة هذه العاطفة إلى أن ختم أبياتها الأخيرة بقوله:

به يرتجي المجذوب ينجو بصحبه بغير امتحان يا شفيع ويسلم

فبين مبدأ تعلقه به صلى الله عليه وسلم وختام مرتجاة، وهذه العاطفة التي تسري في كل مضامين القصيدة، ولعلها سر محبة الناس لها، لمصادفتها عواطفهم وصدق تصويرها لتعلقهم برسولنا صلى الله عليه وسلم، وتعبيرها الصادق عن مكنونات صدورهم، كما عبرت عن مكنون صدر ناظمها.

ومن ذلك أيضًا أن المجذوب قد انتقى لقصيدته كلمات فصيحة المعنى، عميقة الأثر، يصدق عليها أنها من السهل الممتنع، فمثلاً يقول: (صببت دموعًا) فاختار كلمة (صببت) لإيحائياتها في إيصال المعنى بعمق أكثر من كلمة (انهمرت دموعي) أو (سالت) أو (جرت) ونحو ذلك. وقوله: (حلفت يمينًا) تأكيدًا لحلفه وثقته في أن قلبًا يحب النبي صلى الله عليه وسلم يحرم عليه عذاب النار، ويزيد الأمر تأكيدًا بقوله: (قطعًا) ليبلغ اليقين مداه (بالحلف)و(باليمين) وب(قطعًا) هكذا في بيت واحد، وهو في الوقت ذاته يدلل بهذه العبارات على صدق حبه، وشدة تعلقه.

ومثل ذلك ما جاء في البيت الذي يليه من استخدام كلمة (شامكم) و(يقينًا في الجنان منعم) و(الشام) من فصيح العربية بمعنى الدخول في الشيء، فكأن حب النبي صلى الله عليه وسلم خالطه في كل لحظات حياته، وعبر عنها بقوله (كل ساعة) ومن كان هذا حاله فلا شك أنه (يقينًا في الجنان منعم)، وهذا ترق في تجسيد المعني، ودقة الوصف بعدما ذكّره من الوصف في البيت السابق له.

والمجذوب قد اختار لقافيته الانتهاء بحرف الميم المرفوعة، وهو ما يهب الغنة حقها في التطريب، لتلتقي مع انقلاب الضمة واوًا فيتماوج النفس ممتدًا بلا تطاول، مما يعطي للمعنى بعدًا، وهذا يجري في كل قافية القصيدة، لذا يجد المادحون والمنشدون لهذه القصيدة فرصة واسعة في التحرك لتوصيل المعنى، وانتشاء المادح، وتحريك المستمع، سواء أكان ذلك بالضرب على الطار أم التوقيع على الوتر أو الإنشاد المجرد عن الآلة.

ثم إن في القصيدة من الكلمات ما تعطي بنفسها معناها وإن لم يطلع المرء على شرح الكلمة، فمن ذلك مثلاً قوله:

لساني تحيات تليق بقدركم أكررها في حبكم وأهمهم

فكلمة (أهمهم) بتكرار أحرفها وتعاقبها تعطي معنى إعادة التحيات مرة بعد مرة، فتكون تأكيدًا لكلمة (أكررها)، بل وبيانًا لها.

ومن ذلك أيضًا قوله: ( لصدر واسع بالعلوم مطمطم) حيث تدل كلمة (مطمطم) على كثرة العلم وترادفه في صدره صلى الله عليه وسلم، وهو معنى إيحائي من أحرف الكلمة نفسها.

غير أن من روائع ما تناولته القصيدة، بل هو مقصد المادح من قصيدته وصفه الدقيق الشامل لرسولنا صلى الله عليه وسلم، مقرونًا بالسلام له:

يبدأ فيه برأس الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يتدرج في السلام مارًا بالوجه الشريف متنقلاً بين تضاعيفه كالمتوضئ يتابع أعضاء وضوئه، والمغتسل يتفقد أعضاء غسله فيسلم على طرفه وأنفه وخده وفمه، مستغرقًا في كل عضو، محييًا له مسلمًا عليه ناشرًا له حقه من نعمة الله عليه، واصفًا شكله الحسي كأنك رأي العين، مصورًا لبديع خلق الله فيه صلى الله عليه وسلم، متمليًا في معاني الحكمة فيه: وجه بالضياء ملثم، وطرف أدعج ومعلم، وأنف عديل أنور ومقوم، خد منير أسيل ومشمم، فم نفيس الدر منظم،دائم الذكر والندى لمولاه بغير كلامه لا يتكلم. حتى إذا أخذت العين حقها، وامتلأ القلب حبًا ونشوة، وتشوف العقل لمزيد من الوصف، وبلغ به ما بلغ من الشوق والسلام والحنين لمزيد الوصف، انتقل به من الوجه إلى العنق نقلة في عنفوان سكرتها بالمحبوب، ثم ترفق بالناظر الوله من العنق إلى الصدر، مخترقًا حجبه إلى القلب المستنير بنور الله دومًا بمشاهدة رب العرش في كل لحظة لا تعرف الخلود إلى الراحة ولا النوم لجلال المنظور إليه، لينكفئ بك الوصف إلى كف النبي محمد صلى الله عليه وسلم، التي وسعت في جودها كل فقير صار بعد ذا غنيًا من بعد فقره.

ثم يتصل السلام المضمخ بهذا الأريج الإلهي الساحر إلى قدم الطاهر المطهر صلى الله عليه وسلم فيرفع من قدرها من قدم مباركة حظيت بدوس حجب العز في عليائها، كيف لا وهي التي بات بها في المحاريب قائمًا والناس نوم، حتى صار القيام له صلى الله عليه وسلم سجية يرومها كل ليلة حتى تورمت قدماه.

وههنا حيث يبلغ الوصف هذه الدرجة من العلو، ويسبح القلب في سماوات الراحة النفسية، ينقله المجذوب إلى هالة من الجمال، وصورة من الخيال يعجز الحرف عن وصفها، لقد تجاوز وصف المجذوب أعضاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذاته، فيفاجأ القارئ والمستمع بحسنها، ويستعمل لفظة (يا حسنها) لتعطي آفاقًا أبعد، وراحة أعمق، ووصفًا أدق، وكمالاً ما بعده كمال، ليربط كل تلك الأوصاف بالعناية الربانية، واليد الإلهية التي أبدعت فيه صلى الله عليه وسلم كل هذا الإبداع، ويقرن ذلك بخاتمة حياة الناس يوم الحشر حين يحمل صلى الله عليه وسلم لواء الحمد، وتحته الأنبياء والرسل كلهم صلوات الله عليه وسلامه عليهم، في ذلك الموقف المهيب حين ينقسم الناس فريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير عندها ينشر المجذوب رغبته ورغبة كل مادح ومحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في صحبة الشفيع النبي ذي الأوصاف السابقة بعد أن سلم عليه في كل وصف يرجو أن يختم ذلك السلام بالسلام الأبدي عليه صلى الله عليه وسلم

**سلام على كل النبي محمد نبي عظيم**
**بالجلال معظم**
**نبي لمولاه العلي عناية به تبدو إذما الخلق**
**في الحشر يفحم**
**عليه لواء الحمد ينصب رفعة ومن تحته**
**الأنبياء والرسل يزحم**
**به كل عاص في القيامة لائذ وكل محب فائز**
**ومكلم**
**به يرتجى المجذوب ينجو بصحبه بغير**
**امتحان يا شفيع ويسلم**
**عليك صلاة الله ثم سلامه يعمان كل الآل ها**
**نحن نختم**

**اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد**
**وعلى آله وصحبه اجمعين**

## نماذج سلوكية

د . يوسف عثمان محمد

### فبما كسبت أيديكم

استعرضنا في حلقات مضت كيف جنى سلفنا حصاد كسبهم، ونتائج سلوكهم، رفعة في الدنيا، ورضوانًا من الله، سجله في كتابه الخالد حيث قال جل من قائل ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ○الفتح١٨ ، وقال تعالى ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ○التوبة١١٧، بل جعل سلوكهم معيارًا يقاس عليه الفلاح والنجاح ورضا الله، فقال جل من قائل: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○التوبة١٠٠، تأمل كيف شمل الله برضاه، وبجناته الموعودة كل من اتبع هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

وعندما حقق أسلافنا شروط الاستمساك بحبل الله ظاهرًا وباطنًا صار زمام المبادرة بأيديهم، حملوا هدى الله وأنساحوا به في بلاد الله، ينشرونه بين خلق الله، لا يرجون من وراء ذلك عرضًا من أعراض الدنيا، بل لا يرون لأنفسهم فضلاً على من دخل على أيديهم في دين الله، فما لبث نور الله أن انتشر على أيديهم فأنار مشارق الأرض ومغاربها.

وكانوا مع قبضتهم القوية على حبل الله، وطهارة قلوبهم متمسكين في جماعة، تمثل كيانًا واحدًا، وجسدًا واحدًا، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى كما وصفه صلى الله عليه وسلم، لأن الهدف كما أسلفت واحد، ولأنه سام، لأن الولاء للجماعة فرع من العقيدة وأمر من أوامر الله الذي يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ○المجادلة٢٢ تأمل كيف أثمر إخلاص الإيمان وصدق الولاء، ثم عاد صدق الولاء ليسقي شجرة الإيمان،فتنمو، وتزهر، وتثمر، ولم تكن الشدائد تلين من عقيدة الولاء عند السلف، فكانت جماعة المسلمين متماسكة لا يستطيع عدو اختراقها، تأمل هذا الولاء في قصة الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله في ساعة العسرة كما يرويها كعب بن مالك عليه رضوان الله، وما قاسوه من الشدة كما وصفها الله في قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ○التوبة١١٨ يقول كعب «فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت ومع ذلك لم يتردد لحظة أن يرفض حين عرض عليه العدو أن يلجأ اليه ليواسيه يقول رضي الله عنه بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذ نبطي من نَبَط أهل الشام -»والنبطي» الفلاح سمي بذلك لأنه يستنبط الماء أي يستخرجه - فمن قدم بالطعام يبيعه يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني ودفع إليّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا فقرأته فإذا فيه: «أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء فيممت بها التنور فسجرتها ...» هكذا دون تردد ولا روية لأنها من البلاء ولأنها ولاء لمن حاد الله ورسوله، وقد رسخ في عقيدته أن الولاء لا يكون إلا لله ورسوله وللمسلمين، لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ○التوبة٢٣ فكان هذا التماسك بين أفراد جماعة المسلمين وهذا الاستمساك بحبل الله واحدًا من سنن الله التي أثمرها سلفنا في نشر الخير والإمساك بزمام المبادرة، فلما إرتخت الهمة وضعف التماسك وتواضع الهدف ضاع زمام المبادرة وضاعت الأمة، وخلاصها في العودة الرجوع إلى حبل الله والاستمساك به، والتماسك، فنسأل الله أن يردنا إلى دينه ردًا جميلاً إنه ولي ذلك والقادر عليه

**وللحديث بقية**